انهم «عاهرون»، فهذا مرفوض، حتى لو كان على لسان بوعز الفوضوي، وغير المتعلم، والجاهل، والذي يبدو في الوقت عينه انه ينفذ الى عمق الواقع بكل تناقضاته.

ولكي لا يسقط عوز فريسة لهجوم اليمينيين (كتّاباً ومفكرين)، فانه لم يكتب حقيقة ما يدور في كريات أربع عن العرب. بل كتب بوعز في الرسالة «قسم فقط» مستثنياً قسماً منهم. اذن، أليس هذا دفاعاً غير مباشر عن معقل صهيوني استعماري ناشىء؟

استطاع بوعز ان يسبّ العرب بـ «عاهرين»، كما لو انه كان ليس واعياً لما يقوله. وفي الوقت عينه، استثنى قسماً من كريات اربع ممّن لا يحكون على العرب، وفي هذا حاول عوز ان يكتب ما يريد قوله هو عبر ابطاله، متمسكاً بصهيونيته وعنصريته وشاتماً من ناحية أخرى كل العرب بطريقة مفضوحة، كطرق الصهيونيين الليبراليين الآخرين.

أمّا الكسي جدعون، فلعب دور الصهيوني الخائب من تحقيق الحلم الصهيوني الاشتراكي في دولة اسرائيل. فكتب الى زوجته السابقة ايلانه: «هل تريدين، حقاً، ان اتبرع له لانقاذ الخليل؟ لا يهمني. اشتري له الخليل. وبعدئذ نابلس». و«قبل الاف السنين تأمل رجلٌ من ابسوس اليونانية النار الملتهبة امامه، تأمل واستنتج: ' انتصارها هو انتهاؤها ' و' سأشتري لكم ما تريدونه. رام الله؟ باب ـ الله؟ بغداد؟ ساستغل اموالي لتسليح الطرفين في معركة لا بد ان تنشب ذات يوم بين بوعز وسومو' ».

أمّا ايلانه التي طُلقّت لمعاشرتها الرجال الكثيرين، فانها كتبت الى زوجها الاول الكسي: «صمتك قاتل» لي «كالبكاء» و«الآن قل لي انت: لماذا كتبت لك عن تلك الامور المنسية؟ لحك الندوب القديمة؟ لأن نظل عبثاً في جروحنا؟ لتفسير مغالق علبة سوداء؟ لنتألم ثانية؟ لايقاظ اشواقك؟ ربما كان هذا أيضاً مكيدة للايقاع بك ثانية في شباكي». وهي ـ ايلانه ـ التي تنهي الرواية بنداء صارخ هو نداء المؤلف اكثر منه نداءها: «كما لو انهم يقولون انها توجد بلاد، لكننا لم نعثر عليها. اي مهرّج تسلّل وحملنا الى بغض وجدنا فيه. حاول ان تستوضح كيف نخرج، اين تلك البلاد؟»

لقد اوردت هذه الاقتباسات للتدليل على تفكير عوز الذي كتب، للمرة الاولى، عملاً سياسياً كاملاً. ويبدو ان محاولة عوز خلق شخصيات كاملة ذات ابعاد انسانية متكاملة باءت بالفشل، فبوعز استطاع ان يعمّ بالنسبة الى العرب؛ لكن بوعز لم يعمّ بالنسبة الى موقف المسؤولين في كريات اربع من العرب. كما ان الصاق النعوت الحقودة والسافلة بالعرب على لسان بوعز كانت مسيئة لمصداقية العمل. والكاتب، في هذه الحالة، هو المسؤول عما بدر عن الشخصية وليس الواقع ذاته الذي فرض نفسه على الشخصية ودفعها الى قول ما قالت. فهناك حدود ومقاييس معقولة لا يتخلى الكاتب عنها، ولا يتجاوزها أيضاً.

ان عاموس عوز، الذي عرفناه كاتباً «متملّصاً» في كتابه «هنا وهناك في أرض ـ اسرائيل» ما زال يحاول ان يناور الواقع، وان يطلق النعوت التعسفية على العرب، وان لا يندّد، مباشرة، بجهاز الحكم الاسرائيلي التوسعي، الذي سبّب كل الكوارث والويلات.

ولئن حاول عوز، في هذه الرواية، ان يمسك بكل الاطراف والكتابة عنها، والاشارة الى الامراض الخطرة، فان مناورته والتصاقه بصهيونيته كفيلتان بالّا يصل الى غايته، مهما حاول ان يجمّل، ويرقّع، وينتقد، ويصرخ. لذا، احترق عمله الادبي، وظل بمثابة بيان سياسي هام لمن يريد الاطلاع قليلاً على السياسة الاسرائيلية وعلى صورة العربي «البشعة» بالنسبة الى الاسرائيلي، وعن عمليات